مدرسة الأحزاب

ملخص
المحاضرة الرابعة

المحاضرة الرابعة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

قال تعالى: (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا)

من الأمور المهمة جدًا التي ستجد أنك تعلمتها عمومًا من السور، وهو مقصد أساسي يسير معك، هو التعريف بالله، لأن الله يُعرَف بصفاته وأفعاله. فالله دائمًا يُعرِّفنا بنفسه، وهذا أمر في غاية الأهمية. ينبغي أن تتبع هذا الأمر دائمًا في كل قصة وفي كل حكاية.

السؤال الدائم في أي موضع في القرآن: اسأل نفسك هذا السؤال الذي سيفتح لك باب تدبر لا نهاية له، وهو: كيف أرى ربي من خلال الآيات؟ أو كيف عرفت ربي من خلال هذه الآيات؟ أو ماذا عرفت عن ربي من خلال هذه الآيات؟ سواء كانت الآيات أحكامًا، جنة، نار، غزوات، أو أي شيء آخر. ودائمًا تأمل في خواتيم الآيات. كيف عرَّف الله نفسه في هذه الآية؟ ولماذا؟

لماذا قال هنا "قويًا عزيزًا"؟ ولماذا قال في الآية السابقة "غفورًا رحيمًا"؟

هو العزيز الذي لا يُغلب .

ربك العزيز سبحانه وتعالى. دائمًا عندما تعرف الله بأسمائه تشعر بالطمأنينة. لذلك، قيل لأحد السلف: "ألا تخشى الفقر؟"، بمعنى أن الطريق الذي تسير فيه قد يضرك أو يؤذيك. ولكن لاحظ معرفة الرب، **فقال: "كيف أخشى الفقر وربّي يملك السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟"**

(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ)

لأن هذه المعركة انتهت بفضل الله وحده. لم يتدخل فيها المؤمنون بأي جهد سواء كان ذلك بناقة أو بعير أو غيره. فعلاً الله تعالى هو من تولّى الأمر بالكامل. سبحانه وتعالى، فهو الذي أرسل الرياح، وهو الذي أسقط القدور، وهو الذي زعزع الخيام، وبث الرعب في قلوبهم. فالانتصار تحقق بفضل الله وحده. لذلك، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه على الصفا أثناء السعي، عندما يرفع يديه: **"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده."**

بِغَيْظِهِمْ: أي أنهم رجعوا بنفس الحنق والغضب والغيظ الذي كانوا يأتون به. لم يُشفَ غيظهم.

لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، بل نالوا شرًا. لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، لماذا؟ لأنهم وإن رجعوا، فإنهم لم يرجعوا خوفًا من الله، ولم يرجعوا نادمين على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم. بل رجعوا مكرهين، ولو كانت الظروف مختلفة، لدخلوا المدينة. وهذا ما نسميه "الإثم المكتسب". بمعنى أن المشركين

عندما عادوا من هذه الغزوة لم يخرجوا منها بدون ذنب. بل أخذوا إثمها، رغم أنهم لم يدخلوا المدينة. لأنهم كانوا يريدون الدخول، لكنهم مُنعوا بالإكراه وليس بالاختيار.

النبي عليه الصلاة والسلام قال: **"من همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة."** في هذا الحديث يظهر لنا أن ليس معنى عدم ارتكابك للسيئة أنك ستحصل على حسنة. بل نسألك: لماذا لم ترتكب السيئة؟ إذا كنت تهمُّ بها ثم تراجعت، لماذا تراجعت؟ فتقول: والله، راجعت نفسي وخفت من الله.

الفائدة التي نستخلصها هنا هي أن الإنسان إذا ترك معصية، يتركها لله، ويتركها خوفًا من الله، فيأخذ حسنة كاملة. سبحان الله! أما هؤلاء (المشركون) فعندما رجعوا، رجعوا بالذنب، لأنهم مُنعوا من إيذاء الصحابة والنبي عليه الصلاة والسلام بالإكراه.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) لم يقل "وكفى الله المؤمنين هذه الغزوة"، بل قال "القتال" ليشمل كل قتال بعد ذلك. وبالفعل، صدق الله، فرغم أن هذه الآية نزلت بعد غزوة الأحزاب، لم يحدث قط أن المشركين حاولوا قتال النبي عليه الصلاة والسلام بعد تلك الغزوة.

فعندما يصل العسر إلى نهايته، اعلم أن ما بعده يسر. فقط الأمر يحتاج إلى ثقة في الله وحسن ظن به وتوكل عليه.

(وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) الله لا يُغلب، وهذا بجندي واحد فقط اسمه "الريح". إذا كان هذا ما يحدث برياح، فما بالك لو نزلت الملائكة؟ جبريل عليه السلام رفع قرى قوم لوط بطرف جناحه، من بين ستمائة جناح. ما الذي تتحدث عنه؟ لقد صاح في القوم صيحة واحدة، فأهلكهم جميعًا.

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ)

القصة دي هي غزوة بني قريظة.

في رواية عليه الصلاة والسلام عاد الى بيته. خلاص بقى الغزوة خلصت. عاد الى بيته. فبدأ يخلع ثيابه من أجل أن يغتسل للصلاة ويهدى ليستريح. فجاءه جبريل كان الموضوع ده امتى وقت صلاة الظهر؟ فجاء جبريل عليه السلام. وقال يا محمد اوضعت السلاح؟ انت ايه خلاص؟ اوعى تسيبوا خلاص انتم الغزوة خلصت كده؟ فقال له اه تمام خلاص. قال اوضعت السلاح؟ قال نعم.قال ولكننا معشر لم نضع اسلحتنا. طب اعمل ايه؟ لم نضع اسلحتنا. انهض بهؤلاء اجمع الصحابة. يلا. قال إلى اين؟ قال الى بني قريظة. جبريل بيقول للنبي عليه الصلاة والسلام يلا الى بني قريظة. فإن الله أمرني ازلزل عليهم.

يا الله! يا لها من طمأنينة! يعني أنك بالفعل تشعر بالراحة والاطمئنان. نعم، إن جبريل عليه السلام معك، وقد قال لك إن الله أمره أن يرافقكم وأنه سيخيف أعداءكم.

انتبهوا، فإن غزوة الأحزاب استمرت شهرًا كاملًا، شهر من حفر الخندق، والرعب، والتعب، والخوف، والبرد، والجوع. هؤلاء الصحابة لم يكونوا عائدين من الكلية أو من مشوار، بل كانوا

عائدين من غزوة استمرت شهرًا. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قال للصحابة: "هيا، الآن توجهوا إلى بني قريظة"، ولم يتردد أحد، سبحان الله! لم يتفوه أحد بكلمة.

هل قال لهم: "هيا، فقط هيا"؟ بل قال لهم: "لا يصلي أحدكم العصر إلا في بني قريظة". أي أن صلاة العصر تكون هناك. الصحابة، عندما وصلهم الخبر في الظهر، كانوا قد حاصروا بني قريظة بحلول العصر.

ونزل النبي ﷺ وحاصرهم لمدة خمس وعشرين ليلة. ماذا؟ خمس وعشرين ليلة إضافية بعد الشهر الذي مضى ؟ نعم، غير الشهر السابق. وهنا بدأوا بالتشاور فيما بينهم.

كان كعب بن أسد هو من قاد هذا التشاور فقال لهم: "أيها القوم، أمامنا خيارات محدودة." سألهم: "ما رأيكم أن نخرج ونقاتل النبي ؟ نواجه هذا الرجل، ونباغته يوم السبت، حيث لا أحد يتوقع هجومنا في هذا اليوم. فقالوا: "لا، لن نستطيع القتال يوم السبت، فهو محرم علينا."

فقال لهم: "حسناً، إذن نقتل نساءنا وأبناءنا، ثم نخرج بأسلحتنا لمواجهته نكون بذلك قد بذلنا كل ما نملك. " لكنهم رفضوا هذا الخيار أيضاً.

ثم قال: "أنتم تعلمون أنه نبي حقاً، ونعلم جميعاً أنه نبي مرسل. فما رأيكم أن نؤمن به وندخل في الإسلام ونسلم تماماً ؟" ولكنهم رفضوا هذا الخيار كذلك.

كانو دائماً مختلفين فيما بينهم، وحتى عهودهم لم يكونوا يوفون بها. سبحان الله ورغم تقديم جميع الخيارات، ظلوا في تردد مستمر.

في النهاية، قيل: "حسنًا، لنترك الأمر له. وهو بدوره سيقرر ما الذي يريد فعله بنا، طالما أنتم لا ترغبون في التوصل إلى اتفاق".

أما كلمة *"صَيَاصِيهِمْ"* فهي تعني "من حصونهم".

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

وقد ألقى الله في قلوبهم الرعب، نعم، إن الله قد ألقى في قلوبهم الرعب، مما جعلهم يشعرون بالخوف الشديد حتى أنهم لم يفهموا السبب وراء ذلك. مع أن المفترض أنهم أقوياء، يستطيعون القتال بسهولة، ولديهم أسلحة فتاكة في الداخل.

فقد وجدوا أنفسهم قد استسلموا، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: "احكم فينا". "احكم ماذا؟ احكم فينا!"، سبحان الله! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "حسنًا، سأخبركم بشيء أفضل. ما رأيكم في اختيار من يحكم فيكم؟" فقالوا له: "نترك الحكم لـ سعد بن معاذ". لماذا اختاروا سعد بن معاذ؟ لأنه كان سيد الأوس، والأوس كان لهم في الجاهلية قبل الإسلام علاقات قوية مع بني قريظة.

في ذلك الوقت، كان سعد بن معاذ موجودًا في خيمة، حيث كان مريضًا نتيجة إصابته بسهم في فخذه. وقد دعا دعوة غريبة قبل أن يعرف أي شيء مما يحدث، نظر إلى جرحه وقال: "اللهم،

إنه ما من قوم أحب إلي أن أقاتلهم فيك أكثر من قوم آذوا رسولك. فاللهم إن كنت قد أبقيت حربًا بيننا وبين قريش، فأبقني لها. وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبين قريش، فاجعل موتي فيها، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة".

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ بأنه هو المختار للحكم في بني قريظة، فقال: "وحكمي نافذ على الجميع". فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم: "نعم". وتأدبا مع النبي، حاول سعد أن يظهر احترامه، فالتفت قليلا ليشير إلى النبي، ولم يكن وجهه مواجها له، وأشار إليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "وعلي ها هنا".

فقال سعد: "احكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، أي الرجال، وأن تُسبى ذراريهم أي النساء والأبناء، وتقسم أموالهم". فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع سماوات".

إذا اجتهد الحاكم فأخطأ، فله أجر واحد. وإذا اجتهد وأصاب، فله أجران.

ثم شهد سعد بن معاذ مقتل بني قريظة وعاد إلى خيمته وما إن دخل الخيمة حتى انفجر جرحه فورًا، ومات سعد بن معاذ على الفور. وكان لموته تأثير عظيم حيث اهتز عرش الرحمن، وحضرت جنازته مجموعة كبيرة من الصحابة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ"، وفي الجنازة قال: "إنني لا أجد لقدمي موضعًا من كثرة الملائكة التي تشهد الجنازة".

فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ، وهم الرجال، وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وهم النساء والأبناء، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ، فقد تمكن الصحابة من هذه الأرض، وصارت ملكا لهم. والله هو الذي أورثهم إياها، فلا ينبغي لأحد أن يعتبر ذلك اعتداءً، فهو سبحانه الذي أذن بذلك. هؤلاء قوم لم يؤدوا الحق الذي عليهم ولم يوفوا بعهودهم.

(أَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا)

التفسير الأول: يشير إلى خيبر، حيث وعد الله المؤمنين بفتحها، لأنها أرض لم يطأوها بعد. هل يُعنى بذلك أيضًا بني قريظة؟ إن هذا بشارة لليهود القادمين من خيبر. وفعلاً، بعد فترة قصيرة، تم فتح خيبر.

التفسير الثاني: المقصود هو فتح فارس والروم. كانت هذه بشرى لفتح الأراضي التي لم يطأها الصحابة بعد، وهي تشمل جميع الأراضي. الكلمة عمومًا تتضمن بشارة بأن الصحابة سيصلون إلى كل الأراضي التي لم يطأوها.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا

الموضوع مرتبط بما سبق، لأن بعد غزوة بني قريظة، أصبح للنبي صلى الله عليه وسلم وللصحابة الكثير من الأموال. تخيلوا ما تركه اليهود من ثروات، فبني قريظة كانوا أغنياء جدًا. مع فتح خيبر أيضًا، اتسعت الدنيا للصحابة، وبدأوا يشعرون بتحسن في أحوالهم المعيشية. كما قالت عائشة رضي الله عنها: "ما شبعنا من خبز الشعير حتى فتحنا خيبر"، مما يدل على أن الحياة كانت صعبة حتى ذلك الوقت.المهم أن الدنيا قد اتسعت، وبدأت الغنائم تتزايد للنبي صلى الله عليه وسلم وللصحابة بشكل كبير.

فالمفترض أن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة يتوقعن أنه يمتلك ثروة كبيرة وأن الحياة قد تحسنت، لذا بدأوا في تقديم طلبات عديدة له. وهنا يبرز السؤال: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم غنيًا أم فقيرًا؟ إذا نظرنا إلى دخله، نجد أنه في الواقع كان غنيًا جدًا، حيث كان يأتيه من الغنائم خمس الخمس، أي ما يعادل واحدًا من خمسة وعشرين من الغنيمة، وهو رقم كبير جدًا.

لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعيد كل هذا لمصلحة المسلمين. أولاً، كان يدخر بعض الأموال لمصاريف العام، ولم يكن يهمل بيته.

كانت كل واحدة من زوجاته تطلب منه شيئًا، ومن الواضح أنهن كن متفقات على الضغط عليه في نفس الوقت، مما شكل عبئًا نفسيًا عليه صلى الله عليه وسلم. فقد كان هذا الأمر يشكل له إرهاقًا نفسيًا، خاصة وأنه لم يكن يرغب في التوسع في الأمور المادية، حيث كان راضيًا بحياته وبعقد الزواج الذي تم بينه وبينهن، وهن يعرفن أنه مرتاح لهذه الحالة.

ومع ذلك، كان ذلك يسبب لهن بعض الضيق. فكان من الممكن أن يتجاوز النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأمر، لكن الله يغضب لنبيه. لذا، نزلت آية تحمل معانٍ قوية للغاية للزوجات.

حكم الله أن يتحدث مع كل زوجة على حدة، ويقول لها: **"إذا كنتِ ترغبين في التوسع في الحياة الدنيا، فسأعطيك ما تريدين، لكن سأطلقك بعد ذلك".**

فهو يمنحهن خيارًا، إما أن يستمتعن بما يرغبن فيه من مال وثروات، أو أن يبقين معه على ما يحب هو، ويرضين بالله ورسوله، ويختارون الدار الآخرة.

ما هو السراح الجميل؟ هو الطلاق بلا جرح لمشاعر الطرف الآخر. بمعنى أنه يتم الطلاق بهدوء واحترام، بحيث يكون القرار مبنيًا على أسباب واضحة، مع الحفاظ على كرامة كل طرف واحترامه، دون استخدام كلمات جارحة.

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31)

هنا يخاطب الله النساء، موضحًا لهن أنهن بعد هذا الخيار، إذا اخترتن الله ورسوله، فقد ارتقين إلى منزلة كبيرة عند الله. لذا، إذا كنّ قد اخترن هذا الاختيار المثالي، فإنهن في مكانة عالية،

ولكن مقابل هذه المنزلة العالية، يجب أن يكن واعيات أن خطأهن لن يكون مثل خطأ أي شخص آخر، إذ إن مسؤولياتهن وواجباتهن أكبر.

هنا، يُشير الله إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن في مكانة خاصة، حيث إن كل ما يفعلنه من خير سيُضاعف لهن. فإذا قمن بعمل صالح، سيُضاعف أجرهن، وإذا ارتكبن خطأ، سيُضاعف عذابه أيضًا.

ما معنى الفاحشة؟ كلمة "الفاحشة" تحمل معنيين:

المعنى الأول: الزنا.

المعنى الثاني: النشوز وسوء الخلق وعقوق الزوج.

الشرط لا يلزم منه إمكانية الوقوع، بمعنى أنني أستطيع أن أضع شروطًا حتى لو كان من غير المحتمل أن تحدث. مثلما قال الله تعالى: **"لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ"(سورة الزمر، الآية 65).** هل يمكن أن يحدث أن يشرك النبي صلى الله عليه وسلم؟ بالطبع لا، لكن الله قال له ذلك ليظهر خطورة الأمر. إذًا، ليس شرطًا أن يكون هناك احتمال للوقوع لتحقيق الشرط.

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31)

القنوت هنا يعني المداومة على الطاعة.

ما هو الرزق الكريم؟ في الواقع، مفهوم الرزق الكريم يتضمن أبعادًا متعددة. يمكن أن يشمل الرزق في الدنيا مثل السكينة والراحة والسعادة. ولكن من التفسيرات الجميلة للرزق الكريم هو أنهن مع النبي صلى الله عليه وسلم في نفس المنزلة، رغم أن عملهن لن يصل بهن إلى هذه المكانة وحده.

إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

الآية تشير إلى أنه إذا كنَّ من أهل التقوى، فإنهن لا يخضعن بالقول. المرأة التقية لا تتعامل بهذه الطريقة. فما معنى الخضوع بالقول؟ كلمة "الخضوع" في اللغة تعني التذلل، وقد أُطلق على رقة المرأة في الحديث مع الرجل، مما يبدو كأنها تتذلل له. حينما تُرقق كلامها وتحرّك مشاعره، فهي بذلك تجعله يطمع فيها، وكأنها قد أذلت نفسها.

في النهاية، من المهم أن يُعرف أن المرأة يجب أن تتمسك بتقوى الله وأن تُحافظ على كرامتها.

أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.